شكيب أرسلان

١٨٦٩ – ١٩٤٦

الأمير شكيب أرسلان هو أحد الشخصيات التاريخية التي تركت بصماتها على النصف الأول من القرن الماضي. فهو كان على امتداد حياته داعية إسلامياً وعربياً. وكان حريصاً في كل مواقفه وفي كل المعارك التي خاضها والمعارك التي شارك فيها أن يوحد بين إسلاميته وعروبته. وكان ينتقل من مكان إلى آخر في العالمين العربي والإسلامي وفي القارة الأوروبية، حاملاً معه همومه واهتماماته المتصلة بقضايا التحرر الوطني والقومي والإسلامي على حد سواء. وكان في الآن ذاته صاحب قلم مميز جعل أهل الأدب يطلقون عليه لقب أمير البيان الذي رافقه على امتداد حياته. وهو ما عبّرت عنه الكتب والكتابات والمحاضرات والمداخلات التي تشكل بمجموعها تراثه الفني. وهي تعبّر بوضوح عن شخصيته بالأساسي منها وبالتفاصيل. وأعترف مسبقاً، وأنا أغامر في الكتابة عن أمير البيان شكيب أرسلان، أن مهمتي لم تكن سهلة. ذلك أن شخصية الأمير شكيب مليئة بالمفارقات والالتباسات حتى لا أقول بالتناقضات. فواحدة من تلك المفارقات أنه كان منذ البدايات لصيقاً بالسلطة العثمانية حتى وهو يحمل راية التحرر للوطن العربي. وكان في الآن ذاته معادياً للدول الأوروبية، لكنه لم يتردد في الاتصال بالزعيم الإيطالي الفاشي موسوليني من أجل سحب قواته من ليبيا دعماً لاستقلالها. وأنهى حياته مقيماً في مدينة جنيف التي منها مارس بعض نشاطاته السايسية والأدبية. لكن هذه المفارقات والالتباسات التي أشير إليها لا تقلل من الدور الذي مارسه على امتداد حياته دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ودفاعاً عن العرب والعروبة. وفي هذا الميدان الأساسي من نشاطه تبرز الملامح الأساسية من شخصيته ومن سيرته ومن تراث الفكري والأدبي والسياسي.

ولد الأمير شكيب أرسلان في عام ١٨٦٩ في بلدة الشويفات. تلقى دروسه الأولية على مدرسين من بلدتي الشويفات وعين عنوب. ثم أرسلته العائلة إلى مدرسة الأميركان في حارة العمروسية في بلدة الشويفات ذاتها. ثم انتقل وهو في سن العاشرة إلى مدرسة الحكمة في بيروت التي استمر فيها حتى عام ١٨٨٦. ثم انتقل من مدرسة الحكمة إلى مدرسة السلطانية. واستمع إلى محاضرات الإمام محمد عبده الذي كان يقيم في بيروت منفياً بعد هزيمة ثورة عرابي التي كان أحد مؤيديها. وأفاد الأمير شكيب من علاقة الصداقة التي كانت تربط عائلته بالإمام.

عيّن بعد الانتهاء من دراسته بواسطة واصا باشا مسؤولاً في مديرية الشويفات التي استمر فيها لمدة عامين. وكانت تلك المهمة الأولى في ممارسته الوظائف الرسمية في ظل السلطنة العثمانية.

سافر في عام ١٨٨٩ إلى الأستانة عن طريق مصر. وخلال وجوده في مصر تعرف إلى عدد من كبار الشخصيات المصرية في الفكر والأدب والصحافة والسياسة كان بينهم سعد

زغلول وحفني ناصيف والشيخ علي يوسف صاحب جريدة "المؤيد" والدكتور يعقوب صروف الذي كان قد أنشأ مجلة "المقتطف" والشاعر محمود سامي البارودي. بقي في الأستانة حتى عام ١٨٩٢ تعرّف خلالها إلى جمال الدين الأفغاني الذي كان قد نفي إلى هناك وظل في الأستانة حتى آخر حياته في عام ١٨٩٥. ومن الأستانة انتقل الأمير شكيب إلى باريس ولندن. والتقى في باريس أحمد شوقي قبل أن يتوج أمير الشعراء. وفي عام ١٨٩٥ تعرّف إلى الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة "المنار". وهكذا وفي أعوام قليلة أصبح بعلاقاته وتعدد زياراته ونشاطاته واحداً من الشخصيات المرموقة في العالمين العربي والإسلامي لصيقاً بالسلطنة العثمانية وبقياداتها في المنطقة العربية. وقد عيّن في عام ١٩٠٢ قائمقاماً في منطقة الشوف. لكنه أقيل من الوظيفة بعد بضعة أشهر. ثم أعيد إليها واستمر فيها حتى عام ١٩١٠. إذ استقال من تلقاء ذاته. وعندما احتل الإيطاليون ليبيا في عام ١٩١١ وقامت ثورة أحمد عرابي تطوع الأمير شكيب لمناصرة الثورة. فجمع عدداً من أنصاره وسافر إلى ليبيا عن طريق مصر وبمساعدة أصدقائه فيها. وعندما قررت الدولة العثمانية الصلح مع إيطاليا سارع في الذهاب إلى الأستانة عائداً من ليبيا عن طريق مصر للتوسط لدى الحكومة في الحفاظ على حقوق ليبيا في الإستقلال.

ظلت علاقة الأمير شكيب مع أركان السلطنة العثمانية تتوطد منذ البدايات وظل يعيّن في مراكز إدارية حتى آخر أيام السلطنة. كما ظل يكلف بمهمات مع دول أخرى وفي مؤتمرات هنا ومؤتمرات هناك حول قضايا ذات صلة بسياسة الدولة العثمانية من جهة، وذات صلة بالأوضاع العربية من جهة ثانية.

سيكون من الصعب الإحاطة بكل النشاطات السياسية التي قام بها الأمير شكيب على امتداد حياته الطويلة. فهو كان موجوداً في كل مكان وفي كل قضية. وكانت له مواقفه اتفاقاً واختلافاً مع كبار القوم في تلك الحقبة. ورغم أنه ظل أميناً لعلاقته بالدولة العثمانية في الكثير من سياساتها، انطلاقاً من ارتباطه منذ البداية بفكرة الجامعة الإسلامية وبدور الدولة العثمانية في قيادتها، فإنه اختلف في أحيان كثيرة مع بعض مواقفها، ومع بعض مواقف وسياسات بعض قادتها، لا سيما مع جمال باشا السفاح في مؤامراته وفي سياسة القمع التي واجه بها معارضي السلطة.

سأتوقف عند بعض مواقف الأمير في عدد من محطات حياته التي كتب هو عنها في سيرته الذاتية، وأشار إليها بعض الذين كتبوا الكثير عنه وعن سيرته وعن مواقفه من القضايا

الساخنة التي رافقت حياته قبيل الحرب العالمية الأولى وما بعدها وقبل وخلال الحرب العالمية الثانية.

لقد أشرت قبل قليل إلى موقفه من احتلال إيطاليا لليبيا، ومبادرته بالاتفاق مع عدد من أصدقائه المصريين، لا سيما الشيخ على يوسف صاحب مجلة "المؤيد"، للذهاب إلى ليبيا والوقوف إلى جانب الثورة التي قادها عمر المختار. وهي مبادرة كان يدمج فيها في موقفه من الدولة الإيطالية التي غزت بلداً عربياً، بين كونه عربياً في الأساس، ومنتمياً إلى الدولة العثمانية باعتبارها السلطة التي تلتقي في داخلها أمم وقوميات عديدة من بينها العرب مشرقاً ومغرباً. وكان في مبادرته تلك يؤكد حرصه على تجنب وقوع أي بلد عربي تحت سلطة دولة من الدول الإستعمارية القديمة في أوروبا. وسوف أتوقف عند بعض الأحداث في شكل انتقائي التي أرمي من خلالها إلى تبيان الشخصية الفذة للأمير من جهة، ولبعض الالتباسات في مواقفه التي حاول في كتاب مذكراته أن يوضح ملابساتها من جهة ثانية. وأخص بالذكر هنا موقفه من المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في عام ١٩١٣ وحضرته شخصيات وطنية مرموقة من كل من لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ومصر. وأقتطف من كتاب "السيرة الذاتية" الفقرات التي يبرز فيها الأمير موقفه من المؤتمر: "**كان شبان العرب، مسلمين ومسيحيين، قد قرروا عقد مؤتمر عربي في باريس، وذهب إليه من رجالات المسلمين في سوريا عدد منهم، المرحوم عبد الحميد الزهراوي، ومنهم المرحوم مختار بيهم، ومنهم المرحوم الشيخ أحمد طبارة، ومنهم السيد سليم علي سلام الذي لا يزال في قيد الحياة. ووافاهم إلى هناك أناس من الجالية السورية في أميركا. كنت ساخطاً على عقد هذا المؤتمر برغم أن هؤلاء وغيرهم (من الذين شاركوا في المؤتمر) كانوا من أعز أصدقائي. وكانت وجهة نظري أن مؤتمراً كهذا لا ينبغي أن يعقد في عاصمة كباريس لها ما لها من المطامح في سوريا، ولا يجوز أن يعقد بينما الدولة مشغولة بالحرب البلقانية، وقد فقدت قسماً عظيماً من السلطنة، وسقطت أهيمتها العسكرية والسياسية. وإن سقوط أهمية الدولة لا ينحصر ضرره في الترك وحدهم، بل يتناول جميع المسلمين. لأن الأوروبيين مهما اجتهدنا ومهما حاولنا التظاهر بالقومية، لا يعرفون المسلمين إلا أمة واحدة، إذا سقط بعضهم رأيت الأوروبيين احتقروا الجميع. والخلاصة، أنني كنت مقاوماً فكرة هذا المؤتمر، واتفقت مع عارف بك المارديني، والي الشام، على الإبراق إلى الأستانة باستنكاره، فأشار الوالي إلى الأعيان والعلماء ورؤساء المذاهب والبطاركة والمكارين، فأمضوا جميعاً برقيات إلى الباب العالي بأنهم لا يعرفون هذا المؤتمر، وتقدمت البرقيات في هذا المعنى من جميع المدن السورية. ثم إن الدولة أرادت أن تتلافى مسألة العرب، فاتفقت مع فرنسا ومنحتها امتيازات كثيرة اقتصادية في سوريا، وبمقابلة ذلك، أسمعت فرنسا الرجال**

الذين عقدوا هذا المؤتمر في باريس كلمات استدلوا منها أنها تخلت عنهم بعد أن كانت وعدتهم النصرة، فضعفت آمالهم فيها. ويقال إن مختار بيهم والزهراوي وسلام وطبارة لحظوا أن مراد رفاقهم المسيحيين لم يكن استقلال سوريا، ولكن فصلها عن تركيا ووضعها تحت حماية فرنسا. فعند ذلك نفروا من رفاقهم المسيحيين وراسلوا الدولة في الرجوع إليها ولكن، على شكل يحفظ شرفهم. وكانت الدولة يومئذ تلافي الأمور، فأرسلت إليهم مدحت شكري، من أقطاب الاتحاد والترقي، فقابلهم في باريس، وتقرر رجوعهم إلى الأستانة وتطييب خواطرهم. وعندما أبرم الاتحاديون هذا القرار، فكر بعضهم بأنه لا يجوز تطييب خواطر الذين ذهبوا إلى المؤتمر السوري في باريس بدون رأي الحزب الآخر الذي بقي متمسكاً بالوحدة العثمانية. وكنت أنا بطبيعة الحال من أشهر رجال هذه الفئة".

ومعروف أن المؤتمر اتخذ قرارات مهمة. ولم يتخاذل الموقعون عليها أمام الضغوط التي واجهتهم، ولا هم كانوا موالين للغرب كما جرى اتهامهم، بل هم كانوا يرغبون بحق أن ينتزعوا من السلطنة العثمانية اعترافاً بحق العرب في أن يكون لهم كيان موحد، حتى داخل السلطنة، وصولاً إلى المرحلة التي يحققون فيها حلمهم بإقامة الدولة العربية الموحدة المستقلة. وقد دافع معظم الذين شاركوا في المؤتمر عن إصرارهم على عقد المؤتمر وعن القرارات التي اتخذوها فيه. وكان الثمن الإعدام شنقاً للذين شاركوا في المؤتمر بقرار من جمال باشا السفاح، وذلك في العام الثالث للحرب في كلّ من ساحة البرج في بيروت وساحة المرجة في دمشق.

وكان موقف الأمير شكيب ذاك يعبّر عن موقفه الثابت في الانتماء إلى السلطنة العثمانية انطلاقاً من قناعته التي أشار إليها في تبرير موقفه من مؤتمر باريس. فهو كان يؤمن بالجامعة الإسلامية، حتى وهو يعلن في العديد من مواقفه عن انتمائه العربي. وهو ما عبّر عنه بوضوح في سيرته الذاتية من أول سطر فيها إلى آخر سطر. ولست هنا في معرض السجال معه حول موقفه. لكنني أعتبر أن من غير الإنصاف أن نقف في الحديث عن شكيب أرسلان عند هذا الجانب في مواقفه. فسيرته الغنية تشير إلى أنه كان واحداً من كبار الشخصيات العربية في الدفاع عن قضايا العرب في المحافل الإقليمية والدولية، ومنها ذهابه إلى لندن في عام ١٩١٩ لمواكبة أعمال عصبة الأمم من أجل الدفاع عن حق البلدان العربية والمشرقية في الاستقلال، وعدم القبول بالانتداب الفرنسي والبريطاني عليها، الذي أقر في ذلك المؤتمر. وكان من أولى نشاطاته بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتهاء الخلافة العثمانية، السفر في أكثر من بلد عربي وأوروبي والإسهام في عام ١٩٢١ في المؤتمر العربي الفلسطيني الذي انتخب فيه أميناً للسر. كانت من أهم قرارات ذلك المؤتمر المطالبة باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين وحقها في إقامة الاتحاد بينها، وإلغاء الانتداب الفرنسي والبريطاني الذي فرض عليها في عصبة الأمم.

ومنذ ذلك التاريخ صارت القضية العربية وعنوانها استقلال بلدانها وتحريرها من الانتداب مهمته الرئيسية التي سافر من أجلها في طول العالم وعرضه.

ومن طرائف ما ارتبط بزياراته إلى الخارج، زيارتان إلى موسكو. الأولى في عام ١٩٢١ بدعوة من أنور باشا الذي كان يقيم فيها. وبعكس ما تردد حول تلك الزيارة من أنه شارك في مؤتمر شعوب الشرق الذي دعا إليه لينين وعقد في باكو، فالأمير كان في ذلك التاريخ في موقف معاد للبلاشفة. وأعلن ذلك لأنور باشا. أما الزيارة الثانية فكانت في عام ١٩٢٧ بدعوة من الاتحاد السوفياتي للمشاركة في احتفالات الذكرى السنوية العاشرة لانتصار ثورة أوكتوبر. وأقام شهراً في موسكو. ولا توجد لديّ معلومات عن ظروف تلك الزيارة ولماذا وجهت إليه بالذات وماذا كان موقفه في ذلك التاريخ من البلاشفة ومن المبادئ الشيوعية. وفي العام ذاته زار الولايات المتحدة الأميركية بدعوة من حزب سوريا الجديدة لحضور المؤتمر السوري الذي عقد في مدينة ديترويت. وفي عام ١٩٢٩ زار الحجاز ليلتقي بالشيخ محمد رشيد رضا الذي كان قد تحول من موقعه في حركة التنوير الإسلامي إلى داعية إسلامي سلفي. وحضر الأمير شكيب في عام ١٩٣٠ المؤتمر الإسلامي العام الذي عقد في القدس... وأصدر في العام ذاته في جنيف مجلة شهرية باللغةالفرنسية هي مجلة " La Nation Arabe". واستمر إصدارها حتى عشية الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٣٨ انتخب رئيساً للمجمع العلمي العربي في دمشق بمرسوم جمهوري.

في هذه الإشارات السريعة إلى الجانب القومي العربي في نشاط الأمير شكيب أرسلان في المرحلة التي أعقبت انهيار السلطنة العثمانية تبرز العناصر الأساسية في شخصيته التي جعلت منه واحداً من كبار شخصيات تلك الحقبة من التاريخ العربي. واستمر حتى نهاية حياته في عام ١٩٤٦ في ذلك الاتجاه في حياته ونشاطه في المقر الذي اختاره بعد الحرب العالمية الأولى في مدينة جنيف. ومن جنيف كان يتنقل من مكان إلى مكان ومن مهمة إلى مهمة من المهمات الكبيرة التي شغل نفسه فيها على امتداد حياته.

وأختم هذه الكلمات التي أستحضر فيها هذه الشخصية الفذة التي صارت تحمل اسم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان بفقرات من المقدمة التي وضعها لسيرته الذاتية: "**لقد ترددت قبل أن حررت هذه الترجمة، وقدمت رجلاً وأخرت رجلاً في إثناء عزيمتي أن أصف نفسي بقلمي. وسبب ذذلك التردد أنه قد جرت العادة أن لا يقدم على ترجمة نفسه إلا من كان من كبار الرجال أو فحولالعلماء الذين ملأت مؤلفاتهم الآفاق، مثل ابن سينا وابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب والجلال السيوطي الذين ترجموا أنفسهم بأقلامهم ومثلهم آخرون من أفذاذ**

الأمم النابغين في الشرق أو في الغرب ممن لا يأخذهم العدد. وإنه من المعلوم أننا لا نقصد أن نقحم أنفسنا في زمرة أكابر كهؤلاء إذ تكلّموا عن مولدهم أو منشئهم أو تحدثوا إلى الخلق عن خواص أنفسهم، لم يكبر الناس منهم هذا الأمر، ولم يروا فيه عُجباً ولا عَجباً. ولكني رأيت بعد التروي أني مهما اجتهدت في محو نفسي، وحاولت إلقاء ستار الإهمال على تاريخ حياتي، فلن يعدم الميدان أناساً يجولون في هذا الموضوع من بعدي، فيخبطون فيه خبط عشواء، ويزيدون وينقصون بغير علم. ومن الناس من هو محب غال، فقد يخلن ما لم أكن أنا أبا عذرته، ويلبسني ما لم أتسم بحليته. كما إن منهم من هو مبغض عال، فيسترسل في خبري إلى القيل والقال، أو إلى ما زينه له البغض الذي في نفسه، وقد يروي عني من الأمور ما قد يكون هو غير معتقد بصحته. والغرض مرض، والهوى آفة للعقل أينما عرض. ومن طبيعة البشر أنهم يقعون في رجال السياسة ورؤساء الأحزاب أكثر مما يقعون في غيرهم. وذلك لأن هلاء قضوا حياتهم في الخصام والمقارعة والجدال والمصارعة، وفي تأييد فريق وإعلاء كلمة على كلمة، فتمتلئ منهم صدور أعدائهم وغراً، حتى لا يكتفوا بتخطئة آرائهم وانتقاد أفكارهم فقط، بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى الطعن في أخلاقهم، وإلى النحت من أثلاثهم. ويرمونهم بما لم يعملوا، بل بما قد يكونون ماتوا ولم يسمعوا به، وقد صادفني من هذا في حياتي الشيء الكثير مما يطول بي استقصاؤه لو جئت أرويه، على حين أني هنا في مقام ترجمة حياة، لا في مقام مجادلات ومناقشات... ".